

الإِخْلَاصُ

لقد خَلَقَنَا اللهُ (سبحانه وتعالى) في هذه الحياة الدنيا لعبادته وطاعته ، وعمارة الكون ، فقال (عز وجل) : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : ٥٦] ، ثم أمرنا سبحانه بالإِخْلَاصِ في عبادته ، فقال تعالى : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } [البينة : ٥] ، وقال سبحانه وتعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الشُّورُ } [الملك : ١٥] .

وقد بين لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن قبول الأعمال متعلق بصدق النية والإِخْلَاصِ فيها ، فعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) (متفق عليه) ، ولكي نصل إلى درجة الإِخْلَاصِ فلا بد وأن نخلص القلب لله (عز وجل) حتى يحكم القلب حركة الجوارح ، فتفعل الجوارح لمراد الله .

وجدير بالذكر أن القلب هو موطن نظر الحق سبحانه وتعالى ، وهو مهبط الرحمات ، وموضع الفيوضات الإلهية ، فإذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) (رواه مسلم) .

أما عن حقيقة الإِخْلَاصِ : فقد اختلفت أقوال العلماء في بيانها ، فقال العز بن عبد السلام (رحمه الله) : الإِخْلَاصُ أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده ، لا يريد بها تعظيمًا من الناس ، ولا توقيراً ، ولا

جلب نفع ديني ، ولا دفع ضرر دنيوي (مقاصد المكلفين) .

وقال سهل بن عبد الله التستري (رحمه الله) : الإِخْلَاصُ : أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، ويقول إبراهيم بن أدهم : الإِخْلَاصُ : صدق النية مع الله تعالى (إحياء علوم الدين) .

وأما عن منزلة الإِخْلَاصِ : فلإِخْلَاصِ منزلة رفيعة ومكانة عالية ، فهو سر خفي من أسرار الحق سبحانه وتعالى يهبه لمن يحب من عباده ، وعليه مدار القبول ، فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا يعجب به صاحبه فيبطله ، والعمل بغير إِخْلَاصِ لا قيمة له ولا وزن له ، فصاحبه

كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه ، ومن شاهد في إخلاصه الإخلاص ، فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص ، وهذا سر عظيم .

وما أحوجنا أن نتدبر قوله تعالى : {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ} [الملك: ٢] ، قال الفضيل ابن عياض (رحمه الله) في هذه الآية : أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ ، قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

فمن عمل عملاً أشرك فيه غير الله تركه الله (عز وجل) لشركه ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (قال الله عز وجل : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ) (رواه مسلم) ، وفي رواية أخرى : (... فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي ، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ) (رواه ابن ماجه) .
فإذا راعى الإنسان بعمله ولم يقصد به وجه الله (عز وجل) فسد عمله ، وساء مصيره ، بل كان أول الهالكين يوم القيامة ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : (إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد ، فأُتِيَ به ، فعرفه نعمته ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ . قال : كذبت ، ولكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ! فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قال : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ! وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ! فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ ، فَعَرَفَهَا . قال : فما عملت فيها ؟ قال : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ . قال : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : جَوَادٌ ! فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ) .

ومن أجل هذا كانت نظرة السلف الصالح إلى الإخلاص نظرة ثابتة ، فكانوا يبنون كل أعمالهم على الإخلاص ، وكانوا حريصين كل

الحرص على المداومة عليه ، وكيفية الوصول إليه ، فهذا الفضيل بن عياض يقول : " ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما" (شعب الإيمان للبيهقي) ، ويقول الإمام الشافعي (رضي الله عنه) : "وددت أن الناس تعلموا هذا العلم - يعني كتبه - على أن لا ينسب إليّ منه شيء" (سير أعلام النبلاء للذهبي).

فهذه الكلمات من الإمام الشافعي تدل على الإخلاص الذي كان يتحلى به، وتلك علامة من علامات المخلصين، إنهم لا يعملون لأنفسهم، بل مرادهم رضا ربهم ، ويودون أن يكفيهم غيرهم تعليم الحق وإظهاره ، وعندما يحاورون خصمهم لا يكون غاية همهم أن يغلبوه ، بل مرادهم ظهور الحق على لسان خصمهم ، والمخلص لا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله. [إصلاح القلوب]، فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَهْتَمَّ بِقَلْبِهِ وَيَزَيِّنَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيُطَهِّرَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ (عز وجل) فَإِنَّ زِينَةَ الظَّاهِرِ مَعَ خَرَابِ البَاطِنِ لَا تُغْنِي شَيْئًا.

ومن علامات المخلص: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل ، فيشهد سنة مشاهد:

المشهد الأول: الإِخْلَاصُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْحَامِلُ وَالِدَّاعِي إِلَى الطَّاعَةِ ابْتِغَاءً وَجِهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى.

المشهد الثاني: مَشْهَدُ الصِّدْقِ وَالنُّصْحِ ، وَهُوَ أَنْ يُفَرِّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ فِي الطَّاعَةِ ، وَيَسْتَفْرِغَ جُهْدَهُ فِي إِقْبَالِهِ فِيهَا عَلَى اللَّهِ ، وَجَمَعَ قَلْبَهُ عَلَيْهَا ، وَإِبْقَاعَهَا عَلَى أَحْسَنِ الْوَجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

المشهد الثالث: مَشْهَدُ الْمُتَابَعَةِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

المشهد الرابع: مَشْهَدُ الْإِحْسَانِ وَهُوَ مَشْهَدُ الْمُرَاقَبَةِ ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ.

المشهد الخامس: مَشْهَدُ الْمِنَّةِ ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْمِنَّةَ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي أَيِّ طَاعَةٍ يَفْعَلُهَا ، قَالَ

اللَّهُ تَعَالَى: {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧] ، وَقَالَ

تَعَالَى: {وَمَا يَكُم مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ

الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات:

[٥٣].

المشهد السادس: مَشْهَدُ التَّقْصِيرِ ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَوْ اجْتَهَدَ فِي الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ غَايَةَ الاجْتِهَادِ وَبَدَّلَ وَسْعَهُ

فَهُوَ مُقَصِّرٌ ، وَحَقُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ ، وَالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ

وَالْخِدْمَةِ فَوْقَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ ، وَأَنَّ عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ سُبْحَانَهُ يَقْتَضِي مِنَ الْعُبُودِيَّةِ مَا يَلِيقُ بِهَا.

فالإخلاص، والصدق، والمتابعة، والإحسان، والمنة، والتقصير لايشهدوها إلا القلب الحيُّ

السَّالِمُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ ، فَعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ} [المؤمنون: ٦٠]، قَالَتْ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: (لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (رواه الترمذي) ، فَيَا لَهَا مِنْ مَشَاهِدَ ، مَا أَجَلَّهَا وَأَعْلَاهَا ، وَمَا أَعْظَمَ حَظَّ مَنْ نَالَهَا وَتَبَوَّأَ عُلَاهَا. (كتاب إصلاح القلوب . عبدالهادي بن حسن وهبي).

ولو نظرنا إلى سلفنا الصالح (رضي الله عنهم) لوجدنا كيف كانوا يطبقون الإخلاص حتى رسخ في قلوبهم ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) لِأُوَيْسِ بْنِ عَامِرٍ: (اسْتَغْفِرْ لِي ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِيهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ) (رواه مسلم)، وَهَذَا مِنْ إِثَارِ الْخُمُولِ وَكْتَمِ حَالِهِ.

وَقَالَ حَمْرَةَ بِنْتُ دَهْقَانَ: (قُلْتُ لِبَشْرِ بْنِ الْحَارِثِ: أَحِبُّ أَنْ أَخْلُوَ مَعَكَ، قَالَ: إِذَا شِئْتَ فَيَكُونُ يَوْمًا ، فَرَأَيْتُهُ قَدْ دَخَلَ قُبَّةً ، فَصَلَّى فِيهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ لَا أَحْسَنُ أُصَلِّيَ مِثْلَهَا ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الدُّلَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الشَّرَفِ ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الْفَقْرَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْغِنَى ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنِّي لَا أُؤْتِرُ عَلَى حُبِّكَ شَيْئًا . فَلَمَّا سَمِعْتُهُ ، أَخَذَنِي الشَّهيقُ وَالْبُكَاءُ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هَاهُنَا ، لَمْ أَتَكَلَّمُ) (كتاب إصلاح القلوب).

إن أثر الإخلاص يظهر على صاحبه ، وثمرته تكون في الدنيا والآخرة ، وصدق الله حيث يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

ثمرات الإخلاص:

- ١ . مغفرة الذنوب والفوز برضوان الله (عز وجل) .
- ٢ . النصر بإذن الله على الأعداء ، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [سورة الأنفال: ٤٥ - ٤٧].

٣ . الحفظ من الشيطان ونزغاته ، قال تعالى : { قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }
[الحجر: ٣٩] .

٤ . تفريج الكربات والهموم والغموم التي يتعرض لها المخلص ، كقصة أصحاب الكهف ، وحديث
الثلاثة الذين دخلوا الغار فنزلت عليهم صخرة سدت مدخل الغار .

٥ . النيل لشفاعة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أَنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ
اللَّهِ مَنْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا
الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَى مِنِّي ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَيَّ الْحَدِيثِ ، إِنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ
الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ (رواه البخاري) .

٦ . فعل الخير دون انتظار مقابل أو جزاء دنيوي ، قال تعالى : { وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَيَّ حُبَّهُ مَسْكِنًا وَآسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ
جَزَاءً وَلَا شُكُورًا } [الإنسان: ٨، ٩] .

٧ . ظهور سيم الصلاح على المخلص ، قال تعالى : { ...سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ
... } [الفتح: ٢٩] .

٨ . استجابة الدعاء ، قال تعالى : { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [المائدة: ٢٧] .

٩ . النجاة من المهالك ، وصرف الأذى والفحشاء ، قال تعالى : { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى
بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } [سورة يوسف: ٢٤] .